

**ثامنا : الدولة الحمادية (394 - 547هـ / 1108م - 1162م)**

سميت دولة بني حماد نسبة إلى مؤسسها حماد بن بلكين بن زيري بن مناد ابن منقوش بن صنهاج وبالنسبة إلى حماد فإنه لم تصل إلينا تفاصيل عن حياته قبل ظهوره على مسرح الأحداث سوء أنه قرأ الفقه في القيروان ونظر في كتب الجدل ولم ترد معلومات عن تاريخ ولادته ، أما بالنسبة إلى تاريخ وفاته فهي سنة ( 419هـ / 1028م ) .

**شخصية حماد وصفاته**

امتازت شخصية حماد مؤسس الدولة الحمادية بمجموعة من الصفات التي يرجع بعضها إلى نسبه الوراثي وبعضها اضطرت له أليه ظروفه كمؤسس دولة ومن خلال ذلك يكون حماد شخصية طموحة عنيفة لا يصددها عن غاياتها عاطفة أو قانون أخلاقي أو ديني وكانت هذه سمة كثير من ملوك صنهاجة الزيريين فهكذا كان عمه زاوي بن زيري وباديس بن حبوس .

لقد توأمت المصادر التي تحدثت عن صفات وأخلاق حماد فقد وصفه ابن الخطيب بأنه كان نسيج وحدة فريد دهره وفحل قومه ملكاً كبيراً وشجاعاً ثبناً وداهية " ووصفه صاحب الاستبصار بأنه كان ذا دهاء وفطنة وتجربة في الحروب وكانت له فراسة وذكاء وأكدت المصادر التي تحدثت عن أخلاقه الحربية وعن فراسته وذكائه فيذكر البكري فمن المحفوظ عن ذكائه أن رجلاً شيخاً خرج مع امرأته من بعض البلاد يريد القلعة وفي الطريق تواطأت المرأة مع شاب على الزعم بأنها زوج الشاب وأنها لا علاقة لها بالشيخ وقد استطاع حماد كشف الحقيقة حين رفع إليه الأمر بواسطة الكلب الذي يصحهم اعتماداً على ألفة الكلب للشيخ وليس للشباب وكذلك الرواية لابن الأثير ونتيجة للقسوة الشديدة التي عرف بها حماد فإن أكثر عسكر حماد كانوا يكرهونه لقله عطائه .

**قيام الدولة الحمادية**

كانت سنة ( 395 هـ / 1004 م ) هو التاريخ الصحيح لميلاد دولة بني حماد وهناك مصادر ترى أن سنة ( 398 هـ / 1007 م ) هو التاريخ الشرعي لميلاد الدولة الحمادية مستندة إلى اختطاط حماد للقلعة بجبل كتامة وهو التاريخ الأقرب لإعلان قيام الدولة وبالرغم من هذين الرأيين المختلفين إلا أن القيام الحقيقي للدولة لم يتم إلا سنة ( 408 هـ / 1016 م ) .

لقد اضطرب حيل النظام بالمغرب على مشارف سنة ( 395 هـ / 1004 م ) بدرجة أصابت باديس أمير دولة صنهاجة في المغرب التابعة للدولة الفاطمية باليأس الكامل في إمكان حكم البلاد والتي تحت يديه حكماً مباشراً فلم يربداً من التنازل الجزئي - في إطار صنهاجة لأبرشخصياتها ألا وهو عمه حماد بن بلكين ولم يترك حماد الفرصة فاشتراط على ابن أخيه شروطاً تشرط فيها وهذه الشروط يذكرها ابن الأثير ابن عذاري وابن الخطيب

1 - تملك حماد ولاية أشير والمغرب الأوسط .

2 - تملك حماد كل ما يفتحه من بلاد زناته .

3 - إن لحماد حق اختيار مكان إقامته (عاصمة) كما يشاء.

4 - إمداد حماد بالعتاد والمال والرجال.

تمثل الدولة الحمادية أول دولة بربرية مستقلة تحكم الجزائر في المغرب الإسلامي لقد دام عمر الدولة الحمادية ما يقرب من قرن ونصف منذ اختط حماد القلعة إلى سقوطها على يد عبد المؤمن بن علي زعيم دولة الموحيدين. وقد حكم الدولة الحمادية تسعة أمراء اختلفوا قوة وضعفاً وأسلوب الحكم وكان حماد هو المؤسس للدولة ثم خلفته ذريته من بعده إلى أن جاء يحيى بن العزيز الحمادي فكان تاسع وآخر أمراء بني حماد (515 – 547 هـ / 1121 – 1253 م) مرت الدولة الحمادية بأطوار عدة تقلبت فيها من الصراع الطويل المستمر إلى الاستقرار النسبي والإبداع الحضاري كان من البديهي أن يتحمل حماد بن بلقين (مؤسس الدولة) أكبر قسط في مرحلة الصراع سواء مع الزييين أو مع زناته وقد حكم الدولة الحمادية في مرحلة الاستقرار النسبي أربعة من أبرز أمراء الدولة الحمادية وهم (حماد والقائد بن حماد ، ومحسن بن القائد وبلقين بن محمد بن حماد) أما مرحلة الإبداع الحضاري كانت سنة (469 – 515 هـ) والتي أبرز أمراءها هو (الناصر بن علناس ، والمنصور بن الناصر ، وباديس بن المنصور والعزيز بن المنصور) وبوفاة العزيز سنة (515 هـ – 1121 م) ، وتولي يحيى ابنه مقاليد الأمور ونتيجة لعوامل محيطة بالدولة نتيجة سلوك يحيى نفسه أصبحت الدولة في مرحلة الانهيار.

### حماد وبداية عهد الاستقلال

أمضى حماد عشر سنوات كاملة (395 – 405 هـ) وهو يعمل على تحقيق شخصية دولته وإذا كان حماد قد نجح في زحزحة زناته وبعثرتها فإن هذا كان تحقيقاً من جانبه للأساس المهم الذي قام عليه العقد السياسي بينه وبين باديس وشعر حماد بحريته وبعد بناء القلعة أخذ يتردد بين أشير والقلعة وهذا التحرك خوفاً باديس فبدأ يتخوف من حماد فعندما بعث الخليفة الفاطمي من مصر إلى باديس بتقليد ابنه المعز ولاية عهده طلب باديس من حماد أن يسلم عمالتي يتجس وقسنطنة إلى ولده المعز الذي كان صبياً لم يبلغ الثامنة من عمره فرفض حماد هذا الطلب واعدّه إخلالاً بالشروط التي بينهما وأكد روح الانفصال عن كل ما يمت لدولة ابن أخيه باديس بصلة فلم يكتف بإعداد جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل وإنما خلع ونبذ طاعة الفاطميين وأرجع دعوة آل العباس وبهذه الخطوات حققت الدولة الحمادية الاستقلال المعنوي إلى جانب الاستقلال في الأرض ولم يعد من بد أن يلتقي الفرعان الصنهاجيان ولم يتوان حماد في انتهاز أقرب فرصة إليه فأعد نفسه للقاء بباديس وفي الوقت نفسه حسم الولاء السياسي وأما باديس فإنه عمل على شراء زعماء جيش حماد بالعطاء الجزيل والتقى الجمعان بوادي شلف وانهمزم حماد هزيمة ساحقة وقد أخذ الناس من الغنائم والأموال ما لا يحصى ونجا حماد واتخذ السير إلى القلعة وكان بها أخوة إبراهيم ثم ذهب إليه فأخذ منها ما أمكن من ذخيرة وعاد إلى القلعة واستعد للحصار فلحقه باديس إلى القلعة واكتفى باديس بالتمثيل ببعض الأسرى من المناصرين لحما وقد بعث حماد رسالة إلى باديس يريد بها الصلح. لم تسفر جميع المساعي عن نتيجة وشدد باديس الحصار على القلعة وحتى الحلم الذي كان يساور حماد بأن تسجل زناته انتصارات لم يتحقق فاضطر باديس إلى الزحف إليه وفك الحصار عن القلعة لقد أمر باديس بإقامة استعراض عسكري سره وابتهج به كثيراً وفي آخر النهار فارق أصحابه واتجه إلى خيمته وفي منتصف الليل توفي فجأة وقد تضاربت الآراء حول وفاته لكن لا يوجد رأي واحد يزعم بأن لحماد يد في ذلك وبموت باديس فك الحصار عن حماد والقلعة وعندما خلف المعز أباه باديس وتسمك حماد بما التزم به والد المعز أن له ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه فلذلك زحف حماد إلى باغية وعندما علم المعز بذلك خرج على رأس جيش من أفريقية حتى انتهى إلى باغية وفك الحصار عنها وانتهت المعركة بهزيمة حماد وأصابته بجراح ووقوع أخيه إبراهيم في الأسر.

واستمر المعز بن باديس في زحفه إلى مدينة سطيف وقصر الطيب ثم قفل راجعاً إلى حاضرتة تاركاً جموع حماد مشتتين في كل اتجاه وحينئذ أدرك حماد أن ساعة تصفية الحساب نهائياً مع القيروان قد حانت فبعث إلى المعز بن باديس يطلب الصلح منه ويسأله العفو وقد بعث إلى المعز بن باديس يستوثقه ونجحت مساعي وفد المصالحة وتم الاتفاق بين

الطرفين على أن يرسل حماد ابنه القائد إلى القيروان ففعل حماد ثم قام المعز بإطلاق سراح إبراهيم وأعطاه الأموال والدواب وكل ما يحتاج إليه وصل القائد بن حماد إلى المعز الذي أكرمه وأحسن إليه ثم كتب إليه منشوراً بولاية المسيلة وطبنة واشير والقلعة مرس الدجاج وسوق الحمزة وكل ما يفتح من بلاد المغرب وقد عاد القائد إلى القلعة بالبنود والهدايا وفي فترة تالية توج هذا الصلح بين الأسرتين بربط أوامر جديدة حيث زوج المعز بن باديس أخته (أم العلو) من عبد الله بن حماد وبذلك أصبح استقلال المغرب الأوسط حقيقة واقعة التي سيتوارث أبناء حماد ملك هذه البلاد حوالي قرن ونصف حتى سقطت الدولة الحمادية في سنة ( 547هـ / 1162م ) في عهد الأمير يحيى بن العزيز.

### القلعة عاصمة بني حماد

إن بناء القلعة في سنة (398 هـ/ 1007 م) واختيارها كعاصمة ارتبط ارتباطاً وثيقاً باستقلال شخصية الدولة الحمادية فضلاً عن الدور الذي لعبته القلعة في حماية الدولة كما أن بناء القلعة كان تنفيذاً لشرط من أهم شروط العقد السياسي بين حماد وابن أخيه باديس .

أما موقع العاصمة القلعة فلم يكن مجهولاً تماماً بل كان هذا الموقع محتلاً من قبل الرومان كما تدل على ذلك الفسيفساء والخرائط ذات الحجارة الضخمة التي تنتمي إلى السور القديم وكان لهذا الموقع أهمية عسكرية قديمة ثم تطورت مكانته في العصر الإسلامي فأصبح في العهد البربري الإسلامي أحد القلاع الهامة وكان اسم مكان القلعة في العهد الإسلامي العربي قلعة أبي طويل وقد ترجم ياقوت الحموي في معجمه لقلعة أبي طويل ترجمة مستقلة وذكر أنها قلعة كبيرة بأفريقية بينما تعدّ قلعة أبي طويل من أحواز قلعة حماد وليست قلعة حماد إلا عمراناً جديداً لقلعة أبي الطويل وقد أحسن حماد في اختيار موقع القلعة من الناحية العسكرية فهي محصورة بين سفحين شديدي الانحدار، ولكي يحقق حماد الغرض الحربي من بناء القلعة عاصمة دولته فقد عمل بعد أن أنهى عملية البناء (405هـ / 1014م) وكان يحيطها بسور من الحجارة يبلغ ارتفاعه متراً واحداً .

=====